نحو تأسيس قول نسوي

أقترح تغيير العنوان ليصبح: نحو تأسيس قول إنسوي، وسنرى لماذا. ثمّ إنّي أريد توضح هذا العنوان لأقول أنّ التّأسيس هنا يعني البحث عن الأسس. (Ce n’est pas fonder mais fondements).

أبدأ أوّلاً بتحديد بعض المصطلحات. حين بدأت بتحضير موضوعي هذا استعرضتُ الكلمات التي سأختارُ منها واحدةً لحملها على القول الذي أحاول البحث قي أسسه، ماذا وجدت؟ بالنسبة لقول الرّجل وجدت مصطلحين؛ القول الذكوري والقول الرجولي بينما بالنسبة لقول المرأة لم أجد المحمول إذ يَغيب لفظ "امرأة" ليصبح قولها إمّا قولاً نسويّاً نسبة إلى نسوة أو نساء، وإمّا أنثوياً أو أنوثياً، نسبة إلى أنثى. والآن إذا عدنا إلى شرح هذه المصطلحات نجد أن قول المرأة يُنسب إمّا إلى الجمع، نسوة، إمّا، إذا نسب إليها كفرد، فالنسبة تكون إلى ما قبل الإنساني فيها أي الأنثى، بينما قول الرجل ينسب إليه كفرد في بعديه الإنساني وما قبل الإنساني. احترتُ بالأمر الذي له دلالاتٌ كثيرة وطُرحت عندي تساؤلاتٌ عديدة ووجدت نفسي ملزمة ببعض التوضيحات الضرورية؛ كلمة امرأة هي مؤنث امرؤ والمرأة هي مؤنث المرء، والمرء هو النكرة هو ال لاشيء اللاّ محدّد، إذاً كلمة امرأة هي تأنيث النكرة ولهذ الأمر معانٍ مهمّة. لكن إذا عدنا إلى الجمع إلى كلمة نساء أو نسوة نرى أنّها قريبةٌ من أن تكون جمعَ إنسٍ، وإذا نظرنا إلى لفظة إنسان، نرى أنّها تعني الجمع بين إنسين كما يشرح ذلك كمال الحاج، وهنا تساءلت لماذا لا يكون هذا الإنسان إنساً وإنسى بدل رجلٍ وامرأة كما هو الحال الآن؟ وتبادر إلى ذهني اقتراحُ استبدال كلمة امرأة للتدليل على أنثى الذكر الإنساني بكلمة "إنسى" أو "ونسى". هذه التساؤلات طرحتها على نفسي بعد أن انتهيتُ من محاولة البحث في أسس القول "الإنسوي"، لأنني حين انتهيت من العمل بحثت عمن يكون صاحبَ القول الذي توصّلتُ إلى معرفة أسسه فلم أجده ولهذا السّبب رأيت من الضرورة أن نبحث معاً عن اسم يُخرج المرأة من اللاّ وجود إلى الوجود، يُخرجها من وضعها كنكرة إلى وضع فاعل. ربّما كان حل المشكلة هنا؛ يعني إذا وجدت المرأة اسماً لها وجدت قولها الخاص، وربّما أيضاً محاولة وضع أسسٍ لقولها تساعدها على إيجاد هويتها أي اسمها. فإذا بدأنا بالقول وصلنا إلى مشكلة من يقول، وإذا بدأنا بمن يقول وصلنا إلى مشكلة ماهية القول. أعتقد بالنهاية أنّه إذا وجدت المرأة قولها، استطاعت أن تجدَ اسمها بالمقابل إذا وجدت اسمَها، استطاعت أن تجد قولها الخاص. لهذه الأسباب أرى أنّه من الضروري أن نبحث من جهة عن المفرد لكلمة نساء ومن جهة ثانية عن أسس القول الذي سيكون صاحبه من يحمل هذا الاسم الذي نبحث عنه، البحثان يتكاملان.

سأعتمد في مداخلتي على المصطلحات والتعابير التالية: القول الرجولي للتدليل على قول الإنسان في الذكر، والقول الذكوري للتدليل على قول الذكر في الإنسان، القول الإنسوي للتدليل على قول الإنسان في الأنثى والقول الأنثوي للتدليل على قول الأنثى في الإنسان، أخيراً سأستعمل مصطلح رجلة للتدليل على المرأة المناضلة في صفوف الحركات النسائية لكني سأحتفظ مؤقّتاً بمصطلح امرأة إلى أن نرى في النهاية ما يمكن أن توصّل إليه.

* * * *

تقول سيمون دي بوفوار أن المرأة لا تولد امرأة بل تصير امرأة وأقول أن المرأة عندنا تولد امرأة، وبفضل الحركات النسائية القائمة وبفضل نضالاتها ومطالباتها وتعاليمها تتحوّل هذه التي ولدت امرأة إلى شبه رجلٍ مخصي، فلا تعود امرأة ولا تصبح رجلاً بل تتحوّل إلى نوعٍ جديد لا هوية له سوى طموحه لأن يكون ذكراً. لهذا السّبب أسمّيها رجلة، يعني "أخت الرّجال" كما يقال في الدارج.

أقول ذلك انطلاقاً من واقع الحال الذي أدّت إليه كل النّشاطات النّسويّة في العالم وفي لبنان. ربّ معترض أو بالأحرى معترضة تقول بأنّ هذا النّضال قد حقّق الكثير للمرأة من حيث المكاسب، فهل المطالبة بحقوق للمرأة تساوي حقوق الرّجل هي عمل خاطئ؟ أسارع إلى القول: لا، المطالبة بتلك الحقوق ليست خطأً، بل أرى أنّ الخطأ يقوم في الأساس الذي انطلقت منه هذه المطالبة؛ كل الحركات النسائية في العالم وعبر تاريخها المعروف طالبت بحقوق للمرأة، مبرهنةً أنّ المرأة هي مثلُ الرجل تتمتّع بنفس المقومات والقدرات التي يتمتع هو بها وبالتالي فهي قادرةٌ على القيام بكل ما هو قادرٌ على القيام به ولذلك يجب أن يكون لها حقوقٌ مثل حقوقه.

إن الخطأ يقوم على محاولة البرهنة أن لا اختلاف بين الرّجل والمرأة التي ينتج عنها حكماً وضرورة المساواة في الحقوق والواجبات بينهما، والصّحيح أنّه يوجد اختلاف بين الإثنين وهو اختلاف طبيعي يعود إلى بنية وتركيبة جسد كل منهما (مثل أعطته إحدى السّيدات على عدم إمكانية التمييز بين نص كتبته امرأة ونص كتبه رجل). هل إذا اعترفنا بذلك، يعني بالاختلاف الطبيعي بين الرّجل والمرأة، علينا أن نعترف حكماً بضرورة وأحقية التّمايز في الحقوق بينهما؟ طبعاً لا. إنّ هذا الخطأ الذي يبني الحقوق على الطّبيعة هو خطأ شائع حتى بين علماء الاجتماع وغيرهم أو على الأقل بين بعض من يدّعون التنظير في السياسة وعلم الاجتماع، يعني في ميادين عديدة وليس فقط في موضوع المرأة. لهؤلاء أقول وللمرأة المناضلة بالتحديد أقول: من الطّبيعة لا نستخرج حقوقاً، الطبيعة تسمح لنا فقط باستخراج القوانين، أمّا

الحقوق فهي وضعية، تخضع لشروط متغيّرة، كانت دائماً عبر التّاريخ من صنع الأقوى. (وحتى الآن في بعض الدول "الديمقراطية" التي تنادي قوانينها بالمساواة، نرى أن الفاجر يأكل مال التّاجر ولكلمة فاجر مستويات عديدة).

لهذا السّبب نرى أنّ الحركات النسائية لا زالت ناشطة وأعتقدُ أنّها ستظلّ تعملُ من دون نتيجةٍ لأنّ ركائز انطلاقتها هي خاطئةٌ، والبرهان هو أن ما حُقِّق حتى الآن المرأة من مكاسب، بفضل نضالات الحركات النسائية، لم يغيّر شيئاً بالنسبة للمرأة، فهي ما زالت غير موجودة إذ ما زال اسمها امرأة أي نكرة كما رأينا ولأنّها لم توجِد قولها الخاص الذي يقوم على ما يميّزها عن الرجل. هذا يعني أنّ المرأة حقّقت ما حقّقت باندراجها تحت مقولات الرّجل، يعني بمحاولتها لعب الدور الذي يقوم هو به وبتبنيتها لقوله الخاص. الكثيراتُ نجحن في هذا المجال وأصبحن رجلات، لكن هذا النجاح هو، بنظري، نجاحٌ براني لا يطال حقيقة المرأة بل إنّه يفرغها من ماهيتها إذ أنّها تتذكرن وتعيش نوعاً من الانفصام فس الشخصية حتى ولو ستّرت ذلك في غوصها في النجاحات الاجتماعية يعني في هروبها إلى الأمام أو حتى لم لم تعي ذلك. النجاح الحقيقي هو حين تجدُ المرأة قولها الخاص، قولَها الذي يُظهر الاختلاف، فهي لا تنوجد إلاّ به. إذا كان الرجل منسجماً مع ذاته ومع قوله من خلال مبدأ الهوية القائم على الهوو هو، فإن المرأة في وضعها الحالي تحاول تطبيق مبدأ الهوية من باب الهي هو، بينما المطلوب، كي تحقق انساجمها، هو أن تطبّق مبدأ الهوية من باب الهي هي.

لكن ما هو القول؟ إنّه سؤالٌ كبير، سأحاول الإجابة عليه باختصار شديد عاصرةً الشّرح إلى أقصى حدود العصر، فأعتبر أنّ القول هو التّعبير بالكلام عن الأنا بعد أن يمرّ هذا التّعبير بكلّ المصافي التي تكلّم عنها فوكو وغيره قبل أن يصبح قولاً منتظماً. والأنا لا يلتقط إلاّ من خلال تعبيره عن ذاته. إنّه هذا الشّيء في ذاته الذي تكلّم عنه كنط والذي لا يعرف منه إلاّ ظاهرته وذلك وفقاً لبنية قدراتنا المعرفيّة. وعندما نقول تعبيراً فهذا يفترض من يُعبّر له أو أمامه، أو من يلتقط هذا التّعبير، وإلاّ أصبح مجانياً ولا ضرورة له. هذا الشريك في التّعبير هو الآخر الذي هو أيضاً، من جهته، أنا يعبّر عن أناه. وإذا كان للتعبير أدوات متعدّدة فإنّ القول هو التّعبير فقط بالكلمة التي تعني الكتابة والمشافهة معاً.

هذا الأنا الذي قوله يعبّر عنه لا ينوجد أو لا يرمى في العالم الذي عليه التفاعل معه لإنتاج قوله، إلاّ من خلال جسده. الجسد هو أداة الأنا للتواصل مع العالم وهو إذاً ظاهرة الأنا (le phenomene du moi)

إنّه ركيزة وأداة المعرفة في الوقت ذاته وبالتالي، لا يتم القول إلاّ به، يعني بالحواس التي تشكّل المعطى الأوّل في صياغة القول. إنّها الأساس الذي يقوم عليه كل البناء القولي والذي بتراكمه يشكّل التاريخ والتّراث وما يسمّى بالحضارة.

أعتبر إذاً أنّ أوّل آلة يمتلكها الأنا هي جسده الذي به يتحرّك ويتغذّى ويتكاثر و... ويفكّر وبالتالي يقول ويعبّر، يعني أنّ القول هو امتداد للجسد أو بالأحرى هو التّعبير عن تفاعلات جسد الأنا مع الخارج بكل معاني التّفاعل. إذاً لكي يكون للأنا قوله الخاص، عليه أوّلاً امتلاك هذه الآلة الأساسيّة التي هي الجسد. هنا أقيّم إيجابيّاً مطالبة الحركات النّسائيّة بحق المرأة في امتلاك جسدها، لكن هنا أيضاً أرى انّ هذا المطلب الحق أتى ناقصاً ونتائجه غير مميّزة إذ أنّ مضمونه هو أن تمارس المرأة جسدها جنسيّاً كما يمارسه الرّجل يعني أن تكون لها الحرية التّامة بأن تمارس الجنس مع من تختاره لذلك، تماماً كما يفعل الرّجل. لا أنفي أنّ ذلك، إذا تحقّق فعلاً، هو مكسب للمرأة لكنّه مكسبٌ ضمن المفهوم الذكوري للتحرّر. يبقى الشق الآخر وهو معرفة الجسد، لكي يكون التّعبير بواسطته قولاً جديداً ومختلفاً. هذا الشّقّ، على ما أعتقد، ما زال غائباً عن بال النشاط النسوي وعن ندواته ومهرجاناته المتنقّلة من بلد إلى بلد. من هذا الباب أدخل لمحاولة البحث عن أسس لقول المراة، أو لقول إنسوي.

إذا اعتبرنا أنّ الجسد هو ظاهرة الأنا، يبقى أنّ هذه الظّاهرة لا تكون كذلك إلاّ إذا كانت نوافذ الجسد مفتوحة، وإلاّ إذا ما أغلقت هذه النّوافذ- الحواس، استغرق الجسد كلّ الأنا، إذ يصبح جثّةً ليس لها شيء في ذاته يحملها. إذاً ما يميّز الجسد هو استمرار انفتاح النّوافذ. يبقى أن نعرف كيف يتعامل الأنا مع هذه الحواس، والأنا ليس حياديّاً بل هو أمّا ذكرُ إمّا أنثى وذلك إذا أخذنا تركيبة الجسد مقياساً للذّكورة والأنوثة. وقبل أن نجيب عن كيفيّة تعامل الأنا مع حواسه، نطرح السّؤال التالي: كيف تعامل الأنا مع الحواس عبر التاريخ وحتى الآن؟ هذا هو السّؤال الذي إن استطعنا الإجابة عنه تمكنّا بالتالي من معرفة ركائز القول الرّجولي ومن ثمّ ما يجب أن تكون ركائز القول "النسوي".

إذا انطلقنا من ضرورة امتلاك الجسد للوصول إلى قول خاص، نرى أنّ الرّجل يمتلك جسده، لأنّه يمتلك القرار في التقائه بجسد الآخر أي جسد المرأة بينما هي لا تمتلك هذا القرار إلاّ خلسة أو تحدّياً أو تشبّهاً بالرّجل، وبخاصة في مجتمعاتنا الشّرقيّة. لكن مفهوم الملكيّة هو مفهوم جشع إذ إن منطق الرّأسمال هو التّراكم، والرّجل الذي يمتلك جسده الذي هو رأسماله أراد ويريد أن يمتلك أيضاً كلّ امتداداته بمعنى كل ما ينتجُ عنه، أي الأولاد. والامتلاك هنا يأخذ صيغة النّسبة، فيُنسبُ الأولاد إليه، بينما لا يحق "للمرأة"

وبسبب عدم امتلاكها لجسدها أن تمتلك ما ينتجُه هذا الجسد، يعني لا يحقّ لها أن تنسب الأولاد إليها (إذا كانت من دون إسمٍ فكيف تستطيع أن تنسب أحداً إليها؟). هذا يعني أيضاً أنّ الرّجل هو الآن كائن لذاته بينما المرأة هي كائنٌ لغيره أي أداة لتحقيق ما يريده الهو. من هنا يأتي قول الهو أو قول الرّجل ممتلئاً ويأتي قول المرأة فارغاً، بمعنى أنّه الصّدى للقول الفعلي وتمثيل على خط مرسوم سلفاً.

المهم في كلّ ذلك بالنّسبة للقول، ليس عمليّة التّملّك بحدّ ذاتها بل كيفيّة إتمام هذه العمليّة؛ إنّ أبوّة الرّجل للأبناء تحتاج إلى إثبات بينما أمومة الأم للأولاد هي واقعٌ بديهي، والإثبات محاججةٌ قائمةٌ على البرهان، على فعل القول، والقولُ لا يكون فاعلاً إلاّ إذا تمأسس. لهذا السّبب أنشأت مؤسّسة الزّواج التي تأمِّن عمليّة امتلاك الرّجل "للمرأة". وبما أنّ الزّواج لا يقدّم البرهان القاطع على علاقة الرجل- الزوج بالأولاد، دُعِّمَت مؤسّسة الزّواج بمؤسّسة أخرى هي دوائر النّفوس كما تسمّى الآن أي بالتّسجيل الذي به يُحرّرُ صك الملكيّة. هذا يعني أنّ الرّجل، بهذا التّسجيل يريد أن يرى ويسمع الجميع يعني أن يعرف الجميع أنّ المولود داخل مؤسّسة الزّواج هو فعلاً ابنه (ربما كانت سجلاّت النّفوس هي أوّل قول مكتوب؟ لا أدري). بينما لا تهتم المرأة لكل هذه الإثباتات، إنّها الأم بالملموس والبداهة. إنّها في هذه العمليّة تعيش المحايثة في كلّ أبعادها ولهذا السّبب تكتفي بشم الطّفل وضمّه ومداعبة جلده النّاعم، تاركةً الرّجل يسعى جاهداً لبناء المؤسّسات الثّبوتيّة. لكن هذا الواقع سمح ببلورة القول الرّجولي. من هنا يمكننا القول ربّما إنّ قول المرأة هو قول البداهة والمحايثة (إذ يكفيها أن تدلّ على الولد وتقول هذا ابني) بينما قولُ الرّجل هو قول التّجريد والتّصعيد والرّمزيّة (بدل أن يدل الرجل على الولد ويقول هذا ابني، يقول هذا ابني بارزاً تذكرة الهوية التي تمثّل صيغة كلاميّة لواقع وليس الواقع الملموس المحايث البديهي).

هذا الواقع، نعتبره الآن طبيعياً، لكنّه، تاريخيّاً مرّ بمرحلتين؛ الأولى، وبحسب علم التّاريخ والأركيولوجيا، تمتدّ من الألفيّة الثالثة عشر قبل الميلاد حتى الألفيّة السّادسة أو الخامسة قبل الميلاد. والثانية تمتد من ذلك التاريخ وحتى عصرنا الحالي. ميزة المرحلة الأولى كانت الالتصاق بالطّبيعة مع الخوف من غموضها، والدّراسات والتّنقيبات تظهر لنا أنّ الإنسان في تلك المرحلة كان يقدّس المرأة (الاكتشافات الأثرية للتماثيل تدلّ على ذلك). ويوازي بين غموض الطّبيعة وغموض عمليّة الإنجاب عندها، فهو ما كان يعرف دورَه في تلك العمليّة. لا كان يملك المرأة ولا كان يملك الأولاد، وجسده كان بنظره عقيماً. وإذا عدنا إلى القول نرى أنّه من الضّروري أن يكون في تلك المرحلة هو قول المحايثة أو القول المبني على المكان حيث إنّ إنسان تلك المرحلة كان غارقاً كليّاً في الطّبيعة محاولاً اكتشافها. كان لم يصل بعد إلى مرحلة التّصعيد والتّجريد. من هنا أعتقد أنّه في تلك المرحلة، لم يكن يوجد اختلاف بين قول الرّجل وقول المرأة،

بعنى أنّ القول المهيمن كان قول المرأة وقوله كان تردداً لقولها تماماً كما هو الآن قول المرأة ترداد لقول الرّجل.

أمّا ميزة المرحلة الثانية التي بدأت مع الميتولوجيا اليونانيّة فهي التّركيز على الحركة، يعني أنّ الإنسان في تلك المرحلة بدأ يركّز على حدس الزّمان، وهذا ما نستنتجه من أهميّة "هرمس" المتحرّك والجوال في تلك الميتولوجيا التي قسّمت الأدوار حيث أنّ الإلهات ك"ديميتار وهستا" وغيرهما كانت تمثّل المكان، إمّا البيت أو الأرض البور او الأرض المحروسة... بينما هرمس وغيره يمثّلون الحركة والتنقّل والحروب و... هذا الواقع الذي بدأ مع الميتولوجيا اليونانيّة يعبّر عنه حديثاً "بارت" بالقول أنّ المرأة مقيمةٌ والرّجل رحالةٌ أو جوال. هذا القول يعني تماماً أنّ المرأة تمثّل المكان بينما يمثّل الرّجل الزّمان. إذاً في المرحلة الثّانية هذه بدأ التّركيز على حدس الزّمان، وهنا بدأ القول يتمايز se nuancer إذ دخله الحدس الجديد. هذا الحدس، تسلّح به الرّجل الذي بدأ أيضاً يعرف دورَه في عمليّة الإنجاب، ليجدَ قوله الخاص المتميّز عن القول السائد سابقاً حيث ألا تمايز، وحيث كان القول المهيمن هو القول المبني على حدس المكان، يعني قول المرأة، من هنا بدأت مرحلة القول الرّجولي الذي ما زال هو المسيطر.

إذا قبلنا أنّ القول المسيطر الآن هو القول الذي انبنى أساساً على حدس الزّمان، وإذا قبلنا ما قلناه سابقاً من أنّ الجسد هو أداةُ القول من حيث التواصل مع الخارج انطلاقاً من نوافذه التي هي الحواس، السّؤال الذي يطرح هو حول الرّبط بين هذا الحدس أي حدس الزّمان والحواس التي تلائمه، يعني ما هي الحواس التي استعان بها هذا الحدس بشكلٍ أساسي كي يستطيع إدراجَ معطياتها تحت مقولات الفاهمة لكي ينتج عن ذلك قول؟

يسهل الرّبط بين الحواس التي نبحث عنها وبين حدس الزّمان، إذا ما نظرنا إلى الواقع الذي يمثّل النتائج التي توصّلت إليها سيطرة القول الرّجولي. الواقع الحالي يقول لنا وبشكلٍ فاقع أنّ حضارتنا قائمةً على سيطرة السّمعي البصري (L audio-visuel) حيث أنّ كل ما يحيط بنا ويشكّل نسيجَ حياتنا هو هذا السّمعي البصري الذي في نهاية المطاف ألغى المسافات (نرى كل العالم على شاشة صغيرة ونعبر القارات بأوقات قصيرة). نستنتج من هذا الواقع أنّ الحواس التي نمّيت عند الإنسان حتى الآن هي حاستا السّمع والبصر أو نقول بشكل آخر أنّ الرّجل ارتكز على هاتين الحاسّتين ليبني قولَه الخاص.

من جهة ثانية إذا استعرضنا تاريخَ انبناء هذا القول الرجولي نرى أنّه مزيجٌ من قول رجولي وقول ذكوري، لأنّه مليء بالحروب والصّراعات وفرض سيطرة الأقوى ابتداءً من الأقوى جسدياً حين كان القولُ

ما زال قريباً من المحايثة إلى الأقوى مالياً حين أصبح القول أقربَ إلى التجريد والتّصعيد. هكذا أصبحنا، وبفضل آلية القول الرّجولي، نساوي ما نملك. أمّا على صعيد التّطوّر العلمي والتكنولوجي فقد أوصلتنا هذه الحضارة الآحادية الحدس إلى تناقض رهيب يتمثّل بقمة الاتّصال وقمّة العزلة مع إلغاء للتواصل (العلاقة بالإنترنيت والتلفيزيون). لقد أصبحنا أفراداً تتحكّم بنا الآلة وتعزلنا عما يحيط بنا.

هكذا نرى أنّ القول الذي بدأ به الرّجل لإثبات الذات وامتلاك الذات انتهى إلى قول ما أملك أي بتحديد الذات بما ليس هو بل بما له (Etre et avoir). وهذا يعني أيضاً أنّ القول الرّجولي_ الذكوري الذي كان قول الحدس الواحد والذي توصل إلى ما توصل إليه بواسطة استعمال وتنشيط حاستين فقط من حواس جسد الإنسان أي السّمع والبصر، قد أفرغ من مضمونه الذي هو توكيد الذات. والعزلة التي رمى فيها الفرد اليوم هي تماماً نقيضُ فعل القول الذي هو التّواصل أي الاعتراف بالآخر كأنا، وليس الانفصال (عدم الاعتراف بالآخر هو الركيزة الأساسيّة التي يقوم عليها الإرهاب فكراً وممارسة... وفعل إلغاء المرأة هو فعل إرهابي). إنّ القول الرّجولي الذي ألغي المكان لا يدري أن إلغاء المكان هو في الوقت نفسه تفتيتٌ للزمان لأنّ المكان هو عامل الوصل، المكان يوحّد والزّمان يفصل، يأكل بعضّه، تماماً كما "كرونس عند اليونان هو الاله الذي يأكل أولاده". (ربّما استطعنا القول هنا إنّ القول الرّجولي قد شارف على النهاية).

نستنتجُ ممّا سبق أن قولَ المرأة يجب أن ينبني على الحواس التي ظلّت عاطلةً عن العمل في مرحلة بلورة القول الرّجولي أي على حاستي الشم واللّمس. كيف؟ إذا قبلنا أنّ القول لا يتحقّق إلاّ ابتداءً من متنوّع المعطيات الحسيّة وإذا قبلنا بأن الأنا هو إمّا رجلُ إمّا امرأة، وإذا قبلنا بأن قول الرجل قائمٌ على حاستي السمع والبصر، يبقى أنّ القول الذي ظلّ صامتاً حتى الآن والذي هو قول المرأة يجب أن يقومَ على ما ظلّ مكبوتاً أو مهمّشاً من الحواس أي الشم واللّمس. هاتان الحاستان ليستا مكبوتتين بمعنى أنّنا لا نستعملها، بل بمعنى أنّهما لم تسمعا صوتيهما ولم تنتجا قوليهما كما يبدو ذلك واضحاً من واقع الحال الذي ذكرناه سابقاً.

أين تمارس هاتان الحاستان؟ إنّ ممارستهما هي في شكلٍ أساسي بديهي ومحايث في علاقة الحب، ففي ممارسة هذه العلاقة يُغمض الإنسان عينيه ويصمُّ أذنيه عن كل ما هو خارجي ويتمتّع بشمّ الحبيب وضمّه ومداعبة وملامسة جلده. وهنا لا بدّ من فتح مزدوجين للكلام قليلاً عن حاسة اللّمس ودور الجلد: إنّ حاسّة اللّمس التي أداتها الجلد هي بمثابة بوابة الجسد وليست فقط إحدى نوافذه كالحواس الأخرى، إذ خارج الجلد يكون الإنسان خارج ظاهرته، يعني لا يعود موجوداً. إنّ الجلد الذي يحيط بكلّ ظاهرة الأنا التي هي

الجسد هو الذي يجعل للجسد مكاناً، هو الذي يُمكِينُ الأنا بينما الأذن وبخاصةّ العين التي ترصد الحركة تزمنِنُ الأنا، ومن يخرج من جلده يبرد كما يقول المثل، يعني يموت.

نعود إلى مفاعيل ممارسة الشم واللّمس لنقول إنّهما حاستا الحب والسّلام، بينما رأينا أن كل ما أنتجتُه الحاستان التي ارتكز عليهما القول الرجولي هو الحروب والصراعات والقتل وصولاً إلى الإرهاب. وهذا أمر طبيعي إذ إن المرأة هي التي تعطي الحياة بينما الرجل هو الذي يقتلها، هي تثبّت ذاتها بالتّكرار، بإعادة إنتاج الحياة وهو يثبّت ذاته بإلغاء الآخر ليحلّ محلّه. من هنا قوله هو القولُ المبني على حدس الزمان الهروب، وقولُها يجب أن يكون القولَ المبني على حدس المكان. ولكلّ حدس أدواتُه الالتقاطيّة، لحدس الزمان حاستا السّمع والبصر ولحدس المكان حاستا الشم واللّمس مع التركيز على اللّمس لما له من أهميّة على صعيد الجسد ككل.

نستنتج إذاً أنّه على المرأة إذا أرادت أن تنتجَ قولَها الخاص، أن تمتلكَ جسدها وأن تعرفه في الوقت ذاته. بامتلاكها لجسدها تكونُ قد تخلَّصَت من الارتهان للأب أو الأخ أو الزّوج أو العشيرة والمجتمع. وبمعرفتها لجسدها تستطيع عيشَ هذا الجسد، يعني تجعله يتخلّص من الارتهان لمشيئة حاستي السّمع والبصر لتجعله يوقظُ وينشّطُ الحاستين اللّتين تميزاه عن جسد الرّجل. لكن إذا ما امتلكت المرأة جسدها فعليها امتلاك نتاجه والذي هو الأولاد، يعني أن تقيمَ قولَ اليقين البديهي مكانَ الشك المبدّد بواسطة القول البرهاني، يعني عليها أن تجابهَ برهانيّة التّجريد ببداهة المحايثة.

هذا ما يتعلّق بوظيفة الجسد وبميزة القول الناتج عن هذه الوظيفة أي البداهة والمحايثة، يبقى أن نشير إلى الخصائص أو الأسس الأخرى للقول الإنسوي حيث إن قول المرأة من حيث علاقة القولِ بالحواس والحدس المتناسب معها، هو القولُ القائم على حدس المكان وعلى الحاسّتين المهمّشتين في انبناء القول الرّجولي أي الشّم واللّمس. وإذا نظرنا إلى عناصر انبناء هذا القول الإنسوي فماذا نجد؟ نجدُ أنّ ركائز هذا القول هي الرّكائز التي تؤلّفُ ولا تفرقُ؛ السمع والبصر هما حاستا الالتقاط عن قرب، حاستا السّمع والبصر هما ركائزُ قول الحرب، الشم واللّمس هما ركائز قول السّلام والحب. هذا من جهة الحواس، أما من جهة الحدس فنجدُ أنّ الزّمان يلغي ذاته، كل لحظة تلغي سابقتَها، هو نهر لا يتوقّف عن الجريان، هو الذي يحوّل الإنسان كائناً للموت كما يقول "هايدغر"، بينما المكانُ رحبٌ، هو عنوان الثبات والاستمرار عبر الزّمان، هو عنوان الحياة. الزّمان هو حيّزُ التّصادم إذ إنّ اللّحظة لا تتسعُ للأنا وللآخر بينما المكانُ يتّسع للجميع،

للأنا وللآخر. وهكذا إذا نشّطنا حاستي الشم واللّمس وأيقظنا حدسَ المكان، يصبحُ الآخرُ هو من أتوقُ للوصول إليه والتّعايش معه وليس من أريد إلغاءَه.

إنّ إنتاج هذا القول يتطلّبُ وقتاً طويلاً لكي يتبلور ويصبح فاعلاً، لكن علينا أن نبدأ ولكل مشروع بداية (هذا ما أحاوله في رواياتي من خلال اللّغة التي أتبنّاها، وهذا ما أشارت إليه إحدى الدّراسات الأجنبية مبيّنة أنّها لغة جديدة تسمّيها لغة الجسد، وهذا هو تماماً ما أحاول إنتاجه). هذه المطالبة البعيدة التحقيق لا تعني أن توقفَ المرأة نشاطَها الحالي في المطالبة بحقوقها حتى يتحقّق قولُها الخاص، لكن عليها، كما أعتقد، أن تصوّب مطالبها انطلاقاً من وعيها لطبيعة قولها المختلف فتبدأ بحصر كلّ طلباتها بمطلبٍ واحدٍ وهو حقّها في أن تنسبَ الأولاد إليها، لكن هذا المطلب يفترض من يُنسبُ الأولادُ إليه يعني يفترض أن يكونَ للمنسوب إليه اسمٌ، ونعلم، كما ذكرنا في المقدمة أنّ لفظة امرأة تعني نكرة. نرى إذاً أنّ أوّل مطلب يجبُ أن تركّز عليه المرأة الحالية الواعية للمشكلة، وبالتّحديد المرأة العربيّة، هو أن تغيّر اسمَها الحالي، وأنا أقترحُ كلمة "إنسى" كمؤنّثٍ لأحد إنسي كلمة إنسان كما رأينا في المقدمة. (لهذا السّبب اقترحت منذ البداية تغيير عنوان هذه الدراسة _المحاولة ليصبح القول الإنسوي نسبة إلى إنسى بدل قول نسوي نسبة إلى نسوة أو نساء). أعرف أنّ هذا المطلب لن يتحقّق بسهولة، لكنّه المطلب الأوحد لأن به أكون أو لا أكون. هل نقع هكذا في دوّامة أو حلقة مفرغة، بمعنى أنّه علي أن أكون كي أقول وبالمقابل علي أن أقولَ كي أكونَ؟ إنّه سؤالَ البيضة والدّجاجة وأيّهما أسبق. والحقيقة أنّهما نشاطان يسيران معاً إذ كلٌّ منهما هو دفعٌ للآخر نحو التحقّق. وهذا يعني وبكلام واضح أن على المرأة وأبادر وأقول على الإنسى أن تنشطَ عملياً في المطالبة بتغيير اسمها وأن تنشط نظرياً في إيجاد قولها المميّز بسبب تميّز أسسه. (عليها مثلاً، إذا اقتنعت بمصطلح "إنسى"، أن تبدأ باستعماله، وصولاً إلى فرضه).

إذا استطاعت الإنسى أن تبنيَ وتفعّلَ قولها الخاص يصبحُ القولُ الإنساني متعافياً ويصبح بإمكانه أن يبني حضارةَ السّلام وأن يتوصّل إلى المعرفة الحقيقيّة القائمة على حدس المكان وحدس الزّمان معاً وليس على حدس واحد. وهكذا يتحولُ نضالُ المرأة إلى بحثها عن موقع لها لا أن تزيحَ الرّجل لتحلّ محلّه كما هو منطق المطالبة النّسويّة الحالية (الاستمرار في استعمال كلمة نسوي للنضال الحالي)؛ فحين أقول للآخر أنا مثلكَ تماماً هذا يعني أنّه يحق لي أن آخذ مكانَك ودورَك، لكن حين أقول وأثبّت للآخر أنّني مختلفة فهذا يعني أن آخذ مكاناً إلى جانبه، هو مكاني الفعلي وذلك من دون صراع ولا مبارزات.

رأينا أنّ القول القائم على حدس واحد هو قولٌ يؤدّي بالنّهاية إلى إلغاء ذاته كما هو حال القول الرّجولي الآن. ربّما كان إحياءُ وتنشيطُ القولِ الإنسوي القائم على الحدس الآخر أي حدس المكان إنقاذاً للقول الإنساني الذي لا يستقيم فعلاً إلاّ إذا كان مكوّناً من القولين معاً. وهنا سؤالٌ يطرحُ نفسه: إذا كان كلٌّ من القولين قائماً على حدس واحد فهذا يعني أن لا لقاءَ بين القولَين. هذا صحيح إذا اعتبرنا أنّ الرّجل الفعلي الواقعي هو ذكورةٌ محض والإنسى الفعليّة الواقعيّة هي أنوثةٌ محض. لكن هذا الاعتبار غيرُ صحيح إذ إن كلّ فرد مكوّنٌ من العنصرين معاً مع رجوح معيّن لأحدهما يكون هو المحددُ في انتماء الفرد إلى جنس من الجنسين. لهذا السّبب كل واحد منّا وإن كان، بما فيه من رجوح جنسي يبني قوله على حدس واحد إلاّ إنّه قادرٌ على فهم وتفهم الآخر لأنّه في شق منه أي الشق غير المحدّد هو مثل الآخر.

مع نهاية القول الذكوري كما رأينا ربما نكون قد وصلنا إلى مرحلة التوليف بحسب التعبير الهيغلي؛ يعني إذا كان القول الإنسوي هو الذي سيطر في المرحلة الأولى كما رأينا وإذا كان القول الرّجولي هو الذي سيطر في المرحلة الثانية، ربّما كانت المرحلة الثالثة هي مرحلة التوليف بين القولين لإنتاج قول جديد وحضارة جديدة يكون الشم واللّمس، إلى جانب السّمع والبصر من ركائز قولها الأساسيّة.

أعتقد أخيراً أن هذا القول الجديد بدأ يتململُ حيث أنّنا نجد بعضَ إرهاصاته في الرّواية الجديدة التي تكسرُ الزّمان وتركّز على المكان. ونجد هذا الجديد في الفلسفة أيضاً وبخاصّة في قول الحداثة حيث نجدُ مثلاً أن فوكو يتصور طباقَ العقل (L’ autrede raison) كنبع مجهول تقوم بواسطته السلطة في التفاعلات الجسديّة، بينما نجد أن هايدغر الأقل أنوثة من فوكو يعتبر أن طباق العقل كقوة أصلية مجهولة يتحدّد بانسياب الزّمان. (هابرماس). والمفارقة أنّنا نجد قولاً إنسوياً عند الرّجل أكثر مما نجده عند المرأة ذاتها، لكني أجد أن الأمر طبيعي الآن إذ أن الرّجل يقول ذاته، هو مرتاحٌ ومنسجم مع ذاته ولهذا السبب يُظهر في قوله الجزءَ الأنثوي الداخل في تركيبته، بينما المرأة (استعمال المرأة هنا هو أصح من استعمال إنسى) ولأنّها ترفضُ ذاتها لتتمثّل بالرّجل فهي تغالي بتبني قول الرّجل فيأتي قولُها أحياناً أكثر ذكورة من قوله، وكأنّها تريد بذلك أن تدعِّم مطالبتها بالمساواة معه.

أنهي مداخلتي بدعوة الجميع إلى حوار حول المواضيع التي حاولت إثارتها، ربّما توصّلنا معاً إلى صياغة مصطلحات جديدة أو ربما اتفقنا أو اختلفنا حول بعض الأمور. في مطلق الأحوال ومهما كانت النتائج فهي جيّدة لأنّها ستكون مدخلاً إلى جديد ما.

إلهام منصور

بيروت 14/ 03/ 02